وظائف تمثيل الخطاب الغيري في الرواية
وفق المنظور الباختيني

د/ أم السعد حياة
جامعة الجزائر2
oumssadhayet@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2017/3/28
تاريخ القـــبول: 2017/04/25

الملخص:

لا يـزال الأدب يغتنـي ويغني الوسط النابع منه، يلتحم به فيفجر المكنـات ويمثل عوالم تفوق الكائن إلى الممكن، من أجل نقل تمثيل معين لإدراكات المؤلف للوجود المحيط به، ولعل ما يطرح أسئلة مستفيضة في الدراسات النقدية والفلسفية والمعرفيـة الحديثة منها والمعاصرة، هي قضية التمثيل La représentation في حد ذاتها، التي عُدت من أهم القضايا وأخطرها، التي بات علينا فهمها واكتشافها ودراستها؛ لتعلم طريقة جديدة لتمثيل عوالمنا، وفهم إدراكاتنا وإدراك الآخر لنا.

وإن كانـت النظريـات المعرفية على اختلافها وفق مقولات غرايس ودان سبربـر Dan Sperber وولسن Deirder Wilson في نظريـة الملاءمـة عاينت هذه القضية على مستوى البنى الذهنيـة المدركة التي تستعمل جملا بسيطة لتمثيل عالمها، فقد ارتأيت في هذه المقالة أن أقدم مفهوم ميخائيل باختين للتمثيل الأدبي، على أساس أن التمثيل الأدبي يستحضر خطابات الآخرين، وذلك ينقلنا من حيز الذات المُدركَة إلى موضوع إدراك الآخر الذي يوظف خطابه خدمة لنوايا الكاتب ومقاصده المشفرة.

الكلمات المفاتيح:

التمثيل/ الإدراك/ الخطاب الغيري/ الخطاب المنقول

Function of otherness discourse representation in novels from a Bakhtinean perspective

Hayet Oumssad
93 Boulvard Mohamed 5; Alger centre
oumssadhayet@gmail.com

Abstract:

Literature has always enriched the environment from which it stems and, in turn, has been enriched by this latter. It merges in this environment, thus, creating possibilities as well as representing worlds going beyond what already exists to what may possibly exist so as to transfer a certain representation of the author's perceptions of the surrounding environment.

The issue that may raise extensive questions in critical, philosophical and cognitive studies, both modern and contemporary, is that of representation in itself, which has been considered as one of the deepest, most important and serious issues that we shall understand, recognize and study in order to learn a new way to represent our worlds and understand our perceptions and those of others about us.

Since the various cognitive theories according to Grace, Sperber and Wilson's proposals, as part of the relevance theory, have examined this issue at the level of perceptual mental structures which use simple sentences to represent their world, in this paper, I would like to introduce Mikhail Bakhtin's concept of literary representation, on the basis that this latter recalls others' speeches which takes us from the perceptual self space issue to that of perceiving the other who uses his speech to serve the author's intents and coded goals.

Key words:

representation/ perception/ otherness-speech/ reported speech.

عرف مجال تحليل الخطاب في النقد الغربي الحديث ذيوعا وتطورا واستمرارية معرفية لا متناهية، لأنه نبع من أسئلة المجتمع وقضاياه، تولد عبر مساءلات فلسفية ثرية كانت غايتها بسط نفوذ الهيمنة الأكاديمية لإيجاد سبل تحليل للخطاب علمي موضوعي يحيط بالظاهرة النصية في بنائها وانتظامها، هذا ما وفره الدرس النقدي النابع من طروحات مدرسة سوسير الذي جرد النص من علاقاته وتفاعلاته مع نصوص أخرى.

هذا التقوقع على الداخلي والعلاقات الموضوعية المجردة التي قبع ضمنها التحليل النصي للخطاب وَلّد مع اتجاهات نقدية أكثر تفتحا نزوحا إلى البحث في **كلية الخطاب**، في ما يصنعه من علاقات وتأثيرات متبادلة تتجلى عبر اللغة لتنقل عالما يضج بالآخر في دوامة وجوده الاجتماعي والنفسي والثقافي، ففي فرنسا في ستينيات القرن الماضي بدأ التوجس من مخلفات مدرسة جنييف ليفتح الخطاب على أسئلة أكثر شمولية خروجا من قضية البنية والنظام والعلاقات الداخلية، على أساس أن النص أكبر من البنى التي تشكله، النص له سياق ومقصد ومتكلم ومتلق، له تأثير واستجابة، من هذا المنطلق تولدت الكثير من المصطلحات في مجال تحليل الخطاب، قدم مجموعة من الباحثين، كل حسب توجهه، الاختلاف الموجود بينها، وبرزت تحديدات مختلفة لمفهوم النص والخطاب والملفوظ والتلفظ، وأهم ما شهدته مرحلة الخروج عن الإرث السوسيري (البنيوي/النسقي) هو تغيير طبيعة الأسئلة والتوجه نحو تحليل الخطاب بمفهومه الواسع الذي لا يتوقف عند البنى النصية، بل يتجاوزها إلى السياقات الصريحة والمضمرة التي تشكل الخطاب، ولا تتجلى إلا عبر اللغة التي تنقل الأفكار والأيديولوجيات. أعاد هذا التيار إلى الواجهة القراءة النقدية الثاقبة؛ لما خلفه البحث العلمي ذي الأبعاد السوسيولوجية والذي تبناه ميخائيل باختين ردا على لسانيات سوسير النفسية المجردة.

فالانتقال إلى مفهوم الخطاب كممارسة اجتماعية ولّد أسئلة أكثر حيوية خاضت في مسائل الغيرية واستثمار الخطابات لتمثيل الأفكار، ونبعت مسائل نقدية نزلت بطروحاتها من علياء التحليل النقدي المنغلق، والبعيد عن القضايا الاجتماعية الحساسة التي تتحكم فيها النزاعات السلطوية المهيمنة، باختلاف أشكالها ومطامحها، حين مارست سلطتها عبر ما تولده من تمثيلات des représentations للعالم، ترسم عبر الوسيط اللغوي توجهات متحيزة، في أكثر الأحيان، ولا تكتشف إلى باستثمار تحليل نقدي للخطاب، من هذا المنطلق كان المجال النقدي البارز في تسعينيات القرن العشرين يحاول الاستعانة بمناهج التحليل **النقدي للخطاب** Critical discourse analysis للوصول إلى «دراسة الكيفية التي يقوم بها النص والكلام بتقنين وإنتاج ومقاومة اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها ولا مساواتها»[1]، وإن كان تون فان ديك Van Dijk من بين مَن أسسوا هذه المدرسة حين احتك ببلدان العالم الثالث وأدرك حجم عدم المساواة الموجودة بين الطبقات الاجتماعية، بين المهيمنين والمهيمن عليهم، ووظف كل طاقته العلمية التي هي مسيرة بحث نقدي جاد فجره تفتحه على تخصصات عديدة في مقاربته لتحليل الخطابات، فطرحه التداولي والمعرفي أخرجه من الجزء إلى البحث في كلية الخطاب وشروط تشكله لارتباطه بالفعل التواصلي الذي هو نتاج له.

لم يكن «فان ديك» ومن تبعه من مدرسة «التحليل النقدي للخطاب» سباقين في خوض مثل هذه القضايا

(1) روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، مراجعة وتقديم، عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة،القاهرة، الطبعة الأولى، 2014، ص7.

المتناولة في الطرح الباختيني، والمتجلية في تنظيراته المختلفة القائمة على اعتبار العلامة في حد ذاتها إيديولوجية بامتياز، تحاور المعاني المتولدة في خضمها وضمن سياق استعمالها؛ لذا نجده يكرر مقولة الحوارية باعتبارها مجمل العلاقات والتفاعلات المستحضرة في الخطاب عبر استثمارات واعية وغير واعية للخطابات الغيرية المختلفة التي يضج بها المجتمع.

1- إشكالية التمثيل في النقد الغربي:

من المؤكد أن قضايا التمثيل la représentation والإدراك والتواصل ثلاثية مهمة جدا في مجالات تحليل الخطاب وحلقات العلوم المعرفية وحتى من أبرز اهتمامات الفلاسفة في مختلف العصور، نحن لا ندرك العالم بالطريقة نفسها، كيف نمثله؟ كيف ننقل للآخرين أفكارنا ونصل إلى إفهامهم إياها وربما التأثير عليهم؟ أو إن صح التعبير، كيف للغة هذا الوسيط غير الحيادي أن ينقل لنا تمثيلات الآخرين كما هي؟ وهل ينقلها فعلا كما هي؟

طبعا، ليست هذه الأسئلة جديدة، لكن البحث نال- في التمثيل والتركيز عليه في الدراسات النقدية المعاصرة- اهتماما واسعا، خاصة في العلوم المعرفية التي جعلت موضوعها «وصف وشرح أهم ممتلكات وقدرات الفكر الإنساني: اللغة، والتفكير، والإدراك، والتخطيط ...»[1].

يبدو أن كلها عناصر مهمة في سيرورات الإنتاج والتلقي، من منظور أنها تمر عبر اللغة التي تعد وسيلة للتمثيل والتواصل والتأثير والهيمنة عبر هذه العلامات التي تحمل أفكارا؛ لتصبح إشكالية العلامة هي إشكالية الرمز المطروحة في الدراسات الغربية القديمة والمعاصرة بجدية كبيرة جدا، وتحاول محاصرة المعنى انطلاقا من علاقة المتكلم بالوجود، وحين نقول المتكلم؛ أي فكره المنقول بواسطة العلامة؛ ليعبر عن الوجود؛ إذ برعت- فعلا- العلوم المعرفية في سبر أغوارها، بدراسة الإحالة والاستنتاجات...وهي مفاهيم تقترن بإدراك الإنسان للعالم ومن ثمة تمثيله.

أما التواصل فيتعلق بتأويل النصوص التي ينتجها الإنسان في علاقة تصنع بين متكلم ومستمع، حين ينتجان معا نصا، والنص كان محل دراسات وتنظيرات معمقة في مختلف مجالات تحليل الخطاب ونظريات النص، كما أصبحت إشكالية إنتاج النصوص وفهمها والتواصل بها محل دراسة في العلوم المعرفية، على أساس أن المتكلم يستثمر نظاما علاميا معينا لتمثيل العالم، والإقناع بوجود فكرة خلف العالم، يراد إيصالها أو التأثير بها؛ لذا أصبحت العلوم المعرفية تشتغل على التواصل والتمثيل، وتركز على التمثيل الذي يجعل اللغة وسيطا للتواصل مع الآخرين، لهذا تساءلت هذه العلوم:

أولا : عن طبيعة علاقة التمثيل La nature de La relation de représentation وهو العمل المنوط بالفلاسفة، ...

ثانيا: ما هو نظام ارتباط العلامة بما تحيل عليه؟ وهل هذه العلاقة التي تربط علامة خاصة بمرجعها مشروطة بعلاقات بين العلامات الأخرى ومرجعيتها ؟ وهل ترتبط بالفرد أو بالنظام الذي يستعملها وينشرها....[2]

هناك أسئلة أخرى تشغل بال العلماء وهي «لا تتعلق بطبيعة علاقة التمثيل، ولا بنظام التمثيل، لكن بما هو كائن للتمثيل في كل مجال من القدرات المعرفية»[3]؛ أي

(1) Daniel Andler :calcul et représentation : les Sources ; in Intr - duction aux sciences cognitives ; Sous la direction de Daniel Andler ; Nouvelle édition augmentée Gallimard ; 1992 et 2004 ; p13

(2) voir Daniel Andler.calcul et représentation : p34

(3) Daniel Andler.calcul et représentation : p 38

بما يمثله الإنسان من مواضيع، وهذا يجرنا إلى طرح أسئلة من نوع آخر:

- لماذا التركيز على إشكاليات **التمثيل** في الدراسات النقدية والمعرفية المعاصرة؟

- لماذا اهتمت النظريات المعاصرة بقضايا الإدراك والتمثيل والتواصل، وخاصة الكيفية التي ركزت فيها على مقولة التواصل» حين يتم من خلالها جلب اهتمام الآخر» وهو ما يجرنا إلى مناقشة إشكالية المقصدية التي تعد إشكالية اللغة والتواصل معا؛ لأننا حين نتواصل نستعمل اللغة لقصد ما؟ فهل تخدم اللغة مقاصدنا وتمثيلاتنا، وتساعدنا على فهم مقاصد الآخرين؟

يجبرنا الخوض في متاهات التمثيل الوقوف عند قضايا جد مهمة خاصة حين يتعلق الأمر بالتمثيل الأدبي؛ لأننا نعرف جيدا وظيفة الأدب وقيمته، ونعلم أن الصراعات المتأججة في العالم هي نقل لتمثلات معينة، وتركيز على تمثيلات مقابل أخرى. إن العالم يُمَثلُ لنا وفق وسائط معينة بالطريقة التي يراد لها، وليس ذلك التمثيل إلا تمويها، في أغلب الحالات، عن العالم الحقيقي، لهذا أعتقد أن مسألة التمثيل من أهم القضايا التي بات علينا فهمها واكتشافها ودراستها لتعلم طريقة جديدة لتمثيل عوالمنا، وفهم إدراكاتنا وإدراك الآخر لنا، لهذا نجد النظريات المعرفية الغربية تشحذ الهمم للإحاطة بهذه المقولة لا سعيا منها لمعرفة حدودها ووظائفها فقط، لكن أيضا لاستعمالها في فرض هيمنتها وسلطتها الرمزية. فنجد الكثير من التمثلات راسخة ومنمطة، بل جامدة في أذهاننا، لم تتغير وهو ما يسهل التحكم في إدراكاتنا.

تعدُّ قضية التمثيل مسألة شائكة، وترتبط بالنظام العلامي والبعد التواصلي، بالتركيز على الآخر الذي تُمَثّل له تصوراتنا وإدراكتنا، ووفق الأسئلة المتنوعة المطروحة سابقا؛ لذا اخترت في هذه الدراسة أن أقف عند مجال معرفي ينتمي إلى حقل التداولية التي أصبحت مع تطور الدراسات «**تداوليات**»، تشتغل في مجملها على دراسة اللغة في بعدها الاستعمالي، كونها «مجال بحث رأى في اللغة بعدا تواصليا تأثيريا ووظيفيا، لهذا يكون التركيز على البعد الاستعمالي للغة المشروط بالمتكلم والمستمع وظروف التلقي والتكلم، تأثرا بالفلسفة التحليلية، وخروجا عن الدراسات النسقية، البنيوية منها والشكلية»[1]. وعلى الرغم من تنوع مشارب التداولية والاختلافات في دراسة البعد الاستعمالي للغة، ارتأيت أن أقدم مفهوم ميخائيل باختين للتمثيل في الرواية، الذي يمر عبر اللغة، لأشرح مقولة **الغيرية** عنده، وأهميتها في تشكيل خطابتنا، وصنع تمثلاتنا، ضمن سياق هذه التساؤلات:

- كيف تتكون ذاتي انطلاقا من الآخر؟

- كيف حدد باختين مفهوم الغيرية؟

- وما هي أهميتها في تمثيل العالم؟ والتأثير على إدراكاتنا؟

2- الغيرية وإدراك العالم وتمثيله عبر الخطاب

يحدد إدراكنا للوجود - الذي يدخل فيه العالم والمجتمع والآخرون - طريقة تمثلنا للعالم، ورؤيتنا التي تحدد لنا سبيل التواصل مع الآخر، ولعل معرفتنا بهذا الآخر تصنعها الظروف الاجتماعية والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والنفسية، والدينية، لهذا غالبا ما يكون تمثيلنا للعالم **حواريا** في أصله، إذ لا يوجد تمثيل ينطلق من العدم؛ لأن عالمي الداخلي مشروط بالخارجي، محاور له ومبدع فيه. لهذا يركز باختين على مقولة الغيرية، فخطاباتنا ومظاهرنا منبعها دائما هو الغير.

(1) Françoise Armengaud : la pragmatique ; Que sais je? presse universitaires de France paris 1985 ; p7.

لقد ركز باختين على الخطاب الغيري كثيرا، وعلى نقل الخطابات وتركيبها، سواء في الحياة اليومية أو في النص الروائي على وجه الخصوص، الذي يضج بخطابات الآخرين، المحورة والمنقولة في أساليب متنوعة جعلت الرواية متعددة أسلوبيا وصوتيا، كما اعتبر باختين اللغة بمثابة خطاب للآخر في لغة الآخر، حتى العلامات التي يستعملها الإنسان كوسيط لنقل إدراكاته وتمثيل عالمه وأفكاره، إيديولوجية بامتياز فهي مليئة بأفكار الآخرين وأصواتهم، فنحن نعي ذواتنا انطلاقا من وعينا بحضور الآخر كجزء مركزي في الذات.

تقوم العملية التواصلية على الذات في معرفتها بالآخر، وفق إدراكها للوجود وتمثيله عبر اللغة، بوصفها الوسيط العلامي الذي يتجلى فيه التداخل الخطابي، الذي يقوم عليه تمثيلنا للعالم والأفكار، وفي ضوء ذلك علينا أن نقر مع باختين، أن العلامة اللسانية اجتماعية إيديولوجية بامتياز. وقد يضفي هذا الإقرار عليها البعد الغيري من جهة والحمولة المعرفية من جهة أخرى، فليس هناك بعد تجريدي في العلامة؛ لأنها تتوالد في المحيط الاجتماعي، محملة بتمثيلاته وضوابطه، وعلى هذا الأساس نعي جيدا لماذا انتقد باختين لسانيات سوسير، والنزعة الذاتية؛ لأنهما أفرغتا العلامة من بعدها الاجتماعي المتحكم في إدراكنا للعالم وتوجيه تمثيلاتنا له. ونفهم من جهة أخرى لماذا أفرد فصلا كاملا من كتابه «الماركسية وفلسفة اللغة» لمشكل التركيب، وفصلا آخر للتفاعل اللفظي، وآخر للخطاب المنقول.

تدور الفكرة الأساسية لمؤلفه في البحث عن الدور الإنتاجي والطبيعة الاجتماعية للتلفظ، إنتاجية تتوالد ضمن الحلقة التواصلية، تتعلق بتوجيه الخطاب، ضمن سياق تواصلي يسهم في إنتاجه المتكلم والمتلقي بوصفهما منتميين إلى البنية الاجتماعية نفسها؛ لذا كان اهتمام باختين بالتلفظ والتفاعل اللفظي من أجل إظهار أهمية «التلفظ» على المستوى العام «لرؤية العالم وللأسئلة المحورية لفلسفة اللغة، لكن أيضا، وهذا هو الأهم، بالنسبة إلى كل الأسئلة اللسانية»[1]، التي لم تستطع الإحاطة بالتلفظ، الذي يُعد الإنتاج الحي لخطاباتنا، ويتطلب على الأقل فردين اجتماعيين يحققان وجود تفاعل، فـ«الكلمة هي الأرض المشتركة بين المتكلم والمستمع. لهذا فالكلام ليس فرديا».[2] واللسان، أي لسان كان، يتطور تاريخيا داخل **التواصل اللفظي الحي**، وليس داخل النظام اللساني لأشكال اللسان، وليس داخل الوعي الفردي le psychisme individuel للمتكلمين[3]، وهو الأساس المعرفي الذي انطلق منه باختين وأبرز خصوصياته وأهميته.

لا مجال للحديث في تنظيرات باختين عن الأنا دون الآخر المحيط بها والمؤثر والمتفاعل معها، يتجلى التفاعل واضحا في مختلف التواصلات الإنسانية والتركيبات اللسانية التي لا تخلو من الحضور الفعلي لخطابات الآخرين ضمن خطابنا. هذا الوعي الحاد عند باختين بالتفاعل الحاصل ضمن الخطابات جعله يولي أهمية قصوى لـ «مشكل التركيب Le problème de syntaxe»، ومفهوم التركيب هنا لا يفهم في أساسه الجملي النحوي، بل يتعلق بتركيب الخطابات وتداخلها فيما بينها؛ مما يسمح بحضور خطاب الآخر؛ لذلك أفرد باختين فصلا تناول فيه بعمق مشكل **الخطاب الغيري** Le discours d'autrui الذي يتجسد عبر أشكال ثلاثة هي: الخطاب المباشر، والخطاب غير المباشر، والخطاب غير المباشر الحر. كلها تدخل ضمن الخطاب

(1) Mikhail Bakhtine; Marxisme et philosophie du langage, E - sai d'application de la méthode sociologique en linguistique, Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les édition de minuit;1977. P21

(2) Ibid : p124

(3) Voir : p137

المنقـول le discours rapporté هـو «الخطاب داخل الخطاب، وهو أيـضا الخطاب على الخطاب، تلفظ على تلفظ»[1].

إن التركيز على هذه الأشكال أو الأساليب الخطابية مهـم جـدا، فخطاباتنـا مليئـة بخطابـات الآخريـن وبالتـالي نعمل دائمـا على استثمارهـا وتحويلها تماشيا مـع مقصدياتنا، وسياقات تلفظنـا؛ وذلك يجعل دراسة الخطاب مهمـة من أجل اكتشاف ظاهـرة **تحويل كلام الغير**، ولأن استثمار كلام الغير ونقله ودمجه بخطاباتنا له **دلالة ووظيفة** تختلف حسب **درجة التحويل** وبحسب **الخطـاب المُحـوَّل**، **ونوعه وسياقه**، فمـن المهم اكتشاف سبل التحويل ومقاصده.

ولـو تساءلنـا لمـاذا يحتـاج الإنـسان إلى استثمـار خطـاب الغـير؟ هل لأنه غير قـادر على تمثيـل إدراكاته ونقـل رؤيته للعـالم بخطاباته الخاصة؟ لعـل الأمر ليس هينـا، فوجودنا هو وجود ملتحـم بالغيرية وعليه كلامنا وإنتاجنا اللفظي مقرون بسياقات وأبعاد تواصلية تختلف وظائفها ومقاصدها، فإن كان أوستين مثلا بين أن الفعل الخطابـي يتكون من ثلاثـة أفعال كلاميـة: فعل الكلام التلفظـي acte locutoire، وفعـل الـكلام الغـرضي acte illocutoire، وفعـل الـكلام التأثـيري acte perlocutoire ومـا يحـدد هـذه الوظائـف هـو كيفية استعمالهـا[2]، فالتأثـير يحتـاج إلى مؤثـر ومؤثر عليه، من أجـل أن يتم التأثـير في التـواصل باستدعاء الآخر، وبتوظيـف كل ما يـراه المتكلـم لازمـا للتأثـير والإقناع، لهـذا نستحضر دائمـا في خطاباتنا خطابـات الآخرين وكلامهـم من أجل إضفاء مصداقيـة معينة على أقوالنا أو تعزيزهـا....أو لقصديـة معينـة تتخفـى في مضمـر الخطاب.

أكد باختين قبل أوستين على حتمية استثمار الخطاب الغـيري؛ لنقـل تمثلاتنـا وإنتـاج خطاباتنـا في سياقات تواصليـة معينـة، يكـون البعـد التأثـيري فيهـا حاضرا بدرجـات مختلفة، لكن لم يكـن هذا الإقـرار إلا بعد أن طرح باختين الأسئلة الآتية:

1- كيف نقبل حقيقة الخطاب الغيري؟

2- كيـف للذات المستقبلة أن تظهر التلفظ الغيري داخل وعيها، وتعبر عنه بالخطاب الداخلي؟

3- كيف يمكن للخطاب أن يمتص حقيقة من قبل الوعي؟ وكيف يؤثر في توجيه كلام المستقبل عندما يتكلم؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة يؤكد باختين أن القبول الفعّال للخطاب الغيري وتحويله داخل سياق معين يحتم علينـا الاهتمام بـكل خصائص موقف/مقـام التحويل. كمـا أن توظيف الخطاب الغيري يختلـف بحسب طبيعة الخطابـات والفـترة المنتجـة فيهـا، فمعاينـة الخطاب الغـيري في العمل الأدبي تختلف عن معاينته في الخطاب القانـوني أو السيـاسي. لذلك لم يتوقـف في مؤلفه عند التحويل الأسلوبي الـذي يطرأ على استخدام الخطابات المنقولة، خاصة منها الخطاب غير المباشر الحر، بل عاد إلى التاريخ الأدبي واللساني ليكتشف بدقة أسباب ظهور الخطـاب غـير المباشر الحـر في فرنسا وألمانيـا وروسيا أيـضا، وبين كيـف **للانغـلاق الإيديولوجـي** أن يُصَلب الخطابـات ويمنع مـن استثمار خطاب الغـير وتحويله، وكيـف يمكن للديكتاتوريـة والدوغماتيـة) الوثوقية (أن تصلب قبول الخطاب الغيري؛ إذ كلما كان الكلام وثوقيا، عقائديا، ومنغلقا، فإنـه لا يسمح بتسرب الثنائيات، وفي ظل الانغـلاق الدوغماتي الديكتاتـوري يختفي الخطاب الغيري الفـردي، وبالتـالي نجد الخطاب غـير المباشر

(1) Ibid : p161

(2) انظر نصيرة غماري: نظرية أفعال الكلام عند أوستين، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة لعربية وآدابها، جامعة الجزائر، العدد 7، جانفي 2006، ص82.

والخطـاب المباشر هما المهيمنان في فرنسا ما بين القرن 16، و17.[1]

لم يكتـف باختين بهذا بل عـاد إلى مختلف المدارس اللسانية التي اشتغلت على تحويل الخطابات من بالي إلى المـدرسة الفوسلرية التي قدمـت شرحا جديدا للخطاب غير المباشر الحر بإدخال عناصر جديدة وهي: الخيال، والذوق اللساني، والحساسيـة sensibilité والانفعال. فحين يستثمر الفنان المبـدع الخطاب غير المباشر الحر «لا يعطـي للشخصيـات الـكلام، مثلما يحـدث هذا في الخطاب المباشر، لكن يسمعهم يتكلمون، هذا الإحساس الحـي المنتج من طرف أصوات مسموعة مثلما يحدث في الأحلام، التي لا يمكن أن نعيدها بطريقة مباشرة إلا في شكل خطاب غير مباشر حر، إنه الشكل الممتاز للتخييل، لهـذا نجـد صدى هذا الـصوت لأول مـرة في الحكايات العجيبة للافونتـان. هذا الشكل ملـك عزيز وثمين على بلـزاك وخصيـصا فلوبير القادرين علـى الضياع تماما داخل العالم الإبداعي لخيالهم»[2].

يبرر هذا الضياع استلهامهم للخطابات المنقولة التي تفجر عوالمهم وأفكارهم وقيودهـم الإيديولوجية، وتتيح لهـم النفاذ عبر هـذه الأصوات إلى المحظور من الأسئلة المزعزعـة للقناعات السائدة، فالتوجه إلى خيال القارئ باستعمال هذه الأشكال التعبيرية ليس الغرض منه قص أو حكي بعض أحـداث أو إنتاجات فكريـة. إنما محاورة القارئ والتـواصل مع انطباعاتـه impressions وزرع تمثيـلات وصور حيـة في روحـه. فلا يتوجـه الكاتب إلى العقل La raison ولكـن إلى الخيال، وهو أهم ما يقوم عليـه استثمـار الخطابـات غـير المبـاشرة في الأعمـال الأدبية.

لكن هذا الخيال الذي يفتح للقارئ صورا حية ينقلها الكاتـب عـبر الخطابـات المنقولة لـن تبقـى في مستوى الخيال، بـل سيتمثلها القارئ في عالمه؛ لأنـه سيتأثر بها في لا وعيـه، وتصبح صانعـة لإدراكاته، هـذا هو الجزء الأخطر في نقل التمثيلات عبر النظم الرمزية مثل الرواية والأفلام...، وقد خصص له بعض السوسيولوجيين مثل بيار بورديو[3] اهتمامـا كبيرا؛ لإبراز خطورة التمثيلات في استثمار النظم الرمزية للتأثير والهيمنة بها.

كان باختـين مـن بـين الذين قدمـوا قـراءة جديدة لتاريـخ الروايـة وأصولهـا، ولأبعادهـا وجماليتهـا، إنه عقـل ناقد، استطـاع بترسانته العلميـة الغائرة في علوم اللغـة، والفلسفة التحليلية، أن يجـد مسارا ينظر به إلى الروايـة الغربيـة، غير متغـاض عن أهميتهـا ووظائفها وقيمتها، مقابل الأجنـاس التعبيرية الأخرى، حين بحث في أصولهـا، وفي الأجناس المتخللـة فيها، وفي أسلوبيتها، وتعددها اللغوي، وبعدها الحواري، وبوليفونيتها التي برع في تجسيدها دوستويفسكي.

3- إشكالية التمثيل الأدبي وتوظيف الخطاب الغيري

اقـترن **التمثيـل الأدبـي** عنـد ميخائيـل باختـين بالإنسان الذي يتكلم، فخطـاب المتكلم لا ينقل، أو ينتج، فقط ولكنه «ممثل بفـن ...المتكلم وخطابه، باعتبارهما موضوع الخطاب؛ أي موضوعا خاصا، لا يمكننا الحديث عـن خطـاب كحديثنا عـن موضوعـات أخـرى للكلام، فالخطـاب يفرض تصرفات شكلية خاصة جدا للملفوظ وللتمثيل اللفظي»[4].

يركـز باختين على التمثيـل الأدبي في سيـاق إبرازه ضرورة إدراك أن الروايـة لا تستثمـر كلام الآخرين من أجـل نقله فقـط، أو إعـادة إنتاجه، بل لتمثيلـه بطريقة

(1) Voir : Bakhtine; Marxisme et philosophie du langage. p168 ,
(2) Bakhtine; Marxisme et philosophie du langage204.

(3) ينظر مؤلف بيار بورديو
Pier Bourdieu: Langage et pouvoir symbolique
(4) Mikhail Bakhtine: Esthétique et théorie du roman , traduit du russe par Daria Olivier, Edition Galimard; 1978 p : 153

فنيـة، هل سنتحـدث هنا عن التمثيل الفكـري للمتكلم؟ أو عـن التمثيل الأسلوبـي؟ أو التمثيل الجمالي الرمزي؟ إننـا حين نكون أمام الرواية علينـا أن نركز على ما فيها مـن خصوصية، وهي تعددها اللـساني من جراء تداخل العديد مـن اللغـات في مستويـات بنائهـا، فموضوعات الجنـس الروائي تبرر هـذا التعدد اللـساني؛ لأننا نجد دائمـا إنسانا يتكلم، والمتكلم هنـا حسب باختين هو فرد اجتماعـي لـه خطـاب إيديولوجـي، لهـذا كان «موضوع الروايـة هـو الإنسان الـذي يتكلم وكلامـه»[1]، والمتكلم طبعـا هم الشخصيات التي تحمـل في كلامها مضامين، وتـرسم صورة باللغة عن المتكلـم، سواء أكان السارد أم الشخصيـة، أم الكاتب أم حتى الرأي العام...، ولأهمية المتكلـم وخطابـه في الروايـة نبهنا باختـين إلى ضرورة التركيز على هذه النقاط الثلاثة المهمة:

-المتكلـم في الروايـة كائـن اجتماعـي، خطابـه لغـة اجتماعية.

-المتكلـم في الروايـة هـو دائمـا كائـن إيديولوجـي un idiologue وكلامه دائما هو ايديولوجام[2].

-اللغـة الخاصة للروايـة تمثل دائما وجهـة نظر خاصة للعـالم، باعتبـار الخطـاب ايديولوجـي فهـو موضوع **تمثيل** داخل الرواية.

-بفـضل **التمثيل الحـواري** لخطـاب إيديولوجي صالح تهتـم الروايـة ـ وبصورة أقـل من الأجنـاس الأخرى ـ بالنزعـة الجماليـة، وعندمـا يسهم الجمـالي بكتابة روايـة، لن تتجلى نزعته الجماليـة في البنية الشكلية، لكـن في كـون هـذه الرواية تمثـل متكلمـا إيديولوجيا للنزعة الجمالية.

وقد يكون هذا عن المتكلم ووجوده في الرواية المقرون ببعد جمالي؛ لأنه من المستحيل تغييب هذا البعد في عمل فنـي له قواعد وضوابط، لكـن باختين ركز من جهة على المتكلم، ومن جهة أخرى على كلام المتكلم، وكأنه يفصل بـين ما لا يفصل، فالأكيد أن المتكلـم ينتج كلاما؟ وليس بالـضرورة أن يكـون إنتـاج المتكلم أفعـالا، لكن باختين لا يتحدث عن الأفعال بل عن الأقوال وقوتها لرسم صورة باللغة عن المتكلم، لهذا يطرح السؤال التالي:

-لمـاذا لا نستطيـع اكتـشاف الموقـف الإيديولوجـي للشخصية، بما في ذلك العالم الإيديولوجي الذي تتكئ عليـه من خلال **أفعالها** فقـط بغض النظر عما **يمثله** خطابها؟

بالنسبـة إلى باختـين مـن المستحيـل تمثيـل العالم الإيديولوجي للآخر بطريقـة صحيحة من دون أن نسمع كلامه هو، حتى بالنسبـة إلى الروائيين الذين لا يتركون شخصياتهـم تتكلـم ويمثلـون أفعالهـا، سنجـد صدى كلامهـا الـذي يبدو غريبـا عـن كلام المؤلـف[3]؛ لهذا ما يهـم في الرواية ويميزهـا ليس صورة الإنـسان ولكن **صورة لغته**، فمـشكل أسلوبية الرواية حسب باختين هي مشكلة **التمثيل الأدبي للغة**، ومشكل **صورة اللغة**.

ينتقد باختين الدراسات الأسلوبية القديمة لسطحية تناولهـا لمـشكل صورة لغـة البطـل، التي تعد مـن أجلى مظاهرهـا التحاور والتحـدث عن خطـاب وكلام الغير بطرق متنوعة ومختلفة. ففي وجودنا اليومي يملأ خطاب الآخـر حياتنا؛ إذ لا نفتـأ نردد ما قيل ويقـال من حولنا «ففـي الكلام اليومـي لكل إنسان يعيـش في ظل مجتمع، نصف كلامه الـذي يتكلمه هو للآخـر، وينقله بدرجات متفاوتة»،[4] فالآخر مهم في حياتنا، وفي إنتاج خطاباتنا

(1) Ibid : p153

(2) يقولها أيضا في كتابه الماركسية وفلسفة اللغة، فالشخصية الذاتية الداخلية بوعيها الذاتي الذي هو ملكها ليس لها وجود باعتبارها حدثا ماديا، لكن باعتبارها حدثا ايديولوجيميا qu'un idéologème

(3) يدخل هنا الحديث عن أسلوبية الرواية، والتعدد اللغوي الذي من بين أشكاله البناءات الهجينة، فصلت إشكالية التعدد اللغوي في الرواية ضمن مؤلفي: تداولية الخطاب الروائي.

(4) Esthétique et theorie du roman.,p158.

اليوميـة، وفي بنـاء العمل الفنـي؛ لأن أهميـة الآخر لها طابعها الجمالي: «انطلاقا من هذا المعنى، فإن للإنسان حاجة جمالية مطلقـة للآخر، وهي حاجة تجمعه وتوحد مع رؤيته ولذاكرته، وقد تكون قادرة على إكسابه اكتمالا خارجيـا، لا يمكـن لتفردنـا أن يتحقـق إذا لم يحققـه الآخر، إن الذاكرة الجمالية إنتاجية، إنها تدرج الإنسان الخارجي، لأول مرة، في إطار جديد من الوجود».[1]

والفنان هو **الآخر** الذي يستطيع بأدواته الجمالية أن يجعـل شخصياته تعيش الإنـسان المنتهي، فما يجعل من ذات ما ذاتًـا محـددة في الزمان والمـكان هو وجودها في مقابـل ذوات أخرى، ومن ثمَّ فـإن ما يجعلني إنسانا، هو وجـودي في حيـز مكاني، وفي فضاء زمنـي في مقابل أي إنسان آخر.

فـإن كُتـبَ **الـكلام المنقول** (وهـو كلام الآخر) فلا يمكن وضعه كلية بين مزدوجين؛ لأنه يخضع لتحويل دائم حسب سيـاق استعمال وحاجة المتكلم، ومنه يعد الجانب الشكلـي لهذا الكلام الغيري من الناحية **التركيبية** غير خاضع للقواعد النحوية للخطاب المباشر، وغير المباشر، من منظـور أن طُرق توظيف **الخطاب الغـيري** متنوعة، كما أن استعماله في الحياة اليومية يختلف عن استعماله في التمثيـل الأدبي؛ لأنـه في الأولى عبارة عن طريقة نقل procèdes de transmission، أمـا في الثانيـة فهـو عبـارة عن **تَمثيـل** une représentation. وهو حسب باختين ما يدخل في معضلة تمثيل خطاب الآخر ونقله.

وقـد لا نختلـف إذا أقررنا أنه في أحيـان كثيرة حين يُستعمـل كلام **الغير في سياق** ما سيخـضع لتعديـلات تمس المعنى، إضافة إلى هذا أن الملفوظ سيصبح محملا بخلفيـة حواريـة؛ لأنه منـسوج من الكلام الغـيري؛ لذا فمـن المهـم عنـد دراسة مختلـف **أشكال نقـل الخطاب الغـيري**، أن نفهـم إطاره **السياقـي**؛ أي جانبه التركيبي الذي أهملته اللسانيات البنيوية؛ لأنها لم تبحث في سياق التلفظ، ولا في تركيب الخطابـات، ولا في السرد الثنائي الـصوت الـذي يستثمر خطـاب **الآخر**، ولم تـول أهمية للطبيعـة المختلطة للسرد بوصفـه نسيجا من الخطابات المسرودة.

ولا يمكـن تـصور أي خطاب من الخطابـات، سواء اليوميـة البسيطـة أو الأكـثر منهـا تعقيـدا، خاليـة من مجمـوع تداخلات لغويـة تستمد ديناميتهـا من التفاعل اللفظـي الحي الذي يـضج به أي مجتمـع كان، وفي هذا السياق يقـول باختين: «عند تأليـف كل ملفوظ للإنسان الاجتماعي، ابتداء من الرد القصير في الحوار المألوف، إلى الأعمـال اللفظية الإيديولوجيـة الكبيرة، فإنه يوجد في شكل معلـن أو مستـتر قـسط مـن الأقـوال الأجنبية الصريحـة المنقولـة بهذه الطريقـة أو تلـك، وداخل كل ملفـوظ تقريبا يحدث نقـاش متوتـر وصراع بين كلامه الخاص وكلام الآخر... يتضح إذًا أن الملفوظ جهاز أكثر تعقيدا وديناميا مما يبدو عليه».[2] علينا الاهتمام بهذا والانتقال من حقيقة هـذه الظاهرة اللصيقة بخطاباتنا إلى ضرورة دراسة السرود التي تستثمر وتدجج نصوصها بخطابات منقولة غايتها فرض الهيمنة والسيطرة.

لقد توقفنـا في دراستنا هذه عنـد طروحات باختين ليس لأنـه كان الأسبق في معاينـة ودراسة مشكل تركيب الخطابـات بقـدر ما كان ملمـا بتتبـع طريقـة استثمار أشكال الخطابـات الغيريـة في المجال الأدبـي، وارتباط هـذا الاستعمـال ببعض العقائـد المنغلقة التـي مارست نفوذهـا الرمـزي للحـد مـن استعمـال الخطابات غير المبـاشرة ضمـن البنيـة الجماليـة، لتكـون الخطابـات صريحة وواضحة لا تحتمل التمويه، أو نقد للأيديولوجية السائدة.

(1) Ibid.,p 55.

(2) ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ترجمة محمد برادة، دار الأمان، الرباط، 1987ص 105.

كان باختين جادًا في تناوله لقضية تمثيل خطاب الآخر في الرواية، التي كانت محل دراسة جادة وعميقة، وفي ضوء ذلك علينا أن نقول أيضا إن باختين كان واعيا بأهميتها وما تمثله من وزن في العالم الغربي، كما كان واعيا بأبعادها الإيديولوجية، ومدركا لممارساتها التأثيرية القوية على إدراك كلام الآخر ونقله في المجال خارج الأدبي؛ إذ وقف عند أشكال التمثيل وطرق استثمار كلام الغير للتأثير وفق السياق وحسب المتلقي والظروف المحيطة، فالتلاعب بالنص يمنحنا القدرة على إضفاء شرعية أكبر لكلام الغير أو العكس (وتسفيهها)، بحسب الغرض من نقل الخطاب الغيري، الذي هو مادة العمل الأدبي التي تنقل تمثيلا فنيا للوجود الذي يحاوره الكاتب ليتواصل ويؤثر به وفق مقصدياته.

وحين يتحدث باختين عن التمثيل الأدبي يتحدث عن الصورة، وعن معضلات التمثيل الأدبي المقرونة بنقل خطاب الآخرين ضمن كلام المتكلم الذي يرسم باللغة صورة ما عن نفسه وعالمه وإيديولوجيته، يرمي من خلالها التأثير على الآخر المحاور له سواء كان مستمعا أو قارئا.

هنا أرجئ الحديث عن قضية مهمة علينا الوصول إليها في دراساتنا اللاحقة للتمثيل الأدبي، وهي **صناعة التمثيلات** للتأثير بها على الآخرين، أشير إلى التعميم والتنميط، كما قدمه كل من بيار بورديو ورجيس دوبريه، كل منهما اشتغل بطريقته على الوسيط الناقل ومدى تأثيراته الممارسة من خلال تمثيلات معينة تمر سواء عبر اللغة أو وسائط أخرى لتمارس نوعا من الهيمنة الرمزية: «فالطبيعة التأثيرية للخطاب تجعله يحقق نوعا من الهيمنة الرمزية، وفي هذه الحالة ينبغي تجاوز الحديث عن حيادية اللغة لنتساءل عن سلطة الكلمات، وهي في نظرية **بورديو** تكمن في أنه «لا يتم التلفظ بها بصفة شخصية من قبل الناطق بها، فالناطق المصرح له بذلك لا يمكن أن يؤثر من خلال الكلمات على فاعلين آخرين، وعلى الأشياء ذاتها، عن طريق عملهم؛ لأن في كلامه تمركز لرأسمال رمزي تراكمَ على مستوى المجموعة ككل، هي من خولته سلطتها»[1]. و لا يمكن الحديث عن التأثير عند **بورديو** دون الكلام عن السلطة الرمزية، والعنف الرمزي، واستراتيجيات صناعة الشرعية.

من هنا حين نعالج قضية استعمال الخطاب الغيري ونقله وتوظيفه في الخطاب الأدبي أو اليومي، علينا أن ندرك وظائفه التي من أبعادها المهمة البعد التأثيري، الذي أشار إليه باختين وبورديو... بل عده **شارودو**، **ومنغينو** كمبدأ مهم من مبادئ تؤسس لفعل اللغة، وهي: مبدأ الغيرية، مبدأ الضبط، مبدأ الملاءمة،[2]

وإذا كنا قد توقفنا عند مبدأ الغيرية مع باختين الملزم لعنصر التأثير الضروري في أي تواصل، نرجئ الخوض في مبدأ الملاءمة كما صاغه كل من **سبلبر**، **وولسن** وقبلهما **غرايس** إلى مقالة آخرى تبرز مدى تطور مجال تحليل الخطاب بانفتاحه على العلوم المعرفية .

ليس الغرض من هذه الدراسة بسط نظريات جوفاء ومصطلحات رنانة، لكن الاتكاء على الزاد النقدي

(1) كريمة سالمي: تمثل الواقع اللغوي والثقافي في خطاب المثقفين في الجزائر المعاصرة، مقاربة تداولية، رسالة دكتوراه علوم، مناقشة في جامعة الجزائر2، إشراف الأستاذة خولة طالب الإبراهيمي، 2014 ،2015، ص 103.

(2) Voir Dictionnaire D'analyse de discours; sous la dire - tion de Patrik Charaudeau et Dominique Mainguneau. Seuil ;2002, P 431 .

بالنسبة لترجمة Le principe de régulation قدم مترجما هذا القاموس إلى العربية مقابلا له «مبدأ التعديل»، وفضلنا استعمال «مبدأ الضبط أو الترتيب»، كما أنهما ترجما Le principe de pert-nence بمبدأ الإفادة، وترجمناه بمبدأ الملاءمة، أما الأستاذ بن عروس مفتاح فترجمه مبدأ الحصافة في رسالة الدكتوراه الموسومة: الاتساق والانسجام في القرآن، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، 2007 ،2008، جامعة الجزائر ، ص17و52.

ينظر أيضا:معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو، دومنيك منغنو، بالاشتراك مع مجموعة من الأساتذة، ترجمة:عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، مراجعة: صلاح الدين الشريف، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2013، ص420.

الغربي ومقولاته المرجعية يغذي ثقافتنا ويدفعنا لضرورة مساءلة توظيف الخطابات الغيرية في إنتاجاتنا الأدبية والنقدية واليومية، بل وما يكتب عنا ولنا وما يأتينا عموما من الآخر، حين يبسط هيمنته أو قهره على المستضعفين، وسلطته بفضل تمثيلاته، لهذا عُدّت مدرسة التحليل النقدي للخطاب مرتعا لكل المشتغلين على الخطاب في علاقته بالسلطة والهيمنة والإيديولوجيا (بمفهومها السلبي)، في دراستها وتحليلها للخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية لفك مختلف أساليب الهيمنة.

المراجع:

- بن عروس مفتاح: الاتساق والانسجام في القرآن، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، 2007. 2008، جامعة الجزائر.
- روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، مراجعة وتقديم، عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة،القاهرة، الطبعة الأولى، 2014، ص7.
- كريمة سالمي: تمثل الواقع اللغوي والثقافي في خطاب المثقفين في الجزائر المعاصرة، مقاربة تداولية، رسالة دكتوراه علوم، مناقشة في جامعة الجزائر 2، 2014، 2015
- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي: ترجمة محمد برادة، دار الأمان، الرباط، 1987.
- معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو، دومنيك منغنو، بالاشتراك مع مجموعة من الأساتذة، ترجمة:عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، مراجعة: صلاح الدين الشريف، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2013.
- نصيرة غماري: نظرية أفعال الكلام عند أوستين، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، العدد7، جانفي 2006.
- Daniel Andler:calcul et représentation : les Sources ; in Introduction aux sciences cognitives ; Sous la direction de Daniel Andler ; Nouvelle édition augmentée Gallimard ; 1992 et 2004.
- Dictionnaire D'analyse de discours; sous la direction de Patrik Charaudeau et Dominique Mainguneau. Seuil ;2002.
- Françoise Armengaud : la pragmatique ; Que sais je? presse universitaires de France paris 1985.
- Mikhail Bakhtine; Marxisme et philosophie du langage, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, Traduct du russe et présenté par Marina Yaguello, les édition de minuit;1977.
- Mikhail Bakhtine: Esthétique et théorie du roman, traduit du russe par Daria Olivier, Edition Galimard; 1978